- السنة: الأولى ليسانس.

- المقياس: فقه اللغة.

- تطبيق.

- فوج(1+2).

-أ/د:موسى شروانة.

فقه اللغة- تطبيق(1+2).

نظريات نشأة اللغة الإنسانية.

تمهيد :

تعرضت اللغة التي يستعملها الإنسان في تواصله مع غيره من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، ومنها اللغة العربية إلى عدد من التفسيرات في أصل نشأتها. وعرفت هذه التفسيرات بنظريات نشأة اللغة. وقد حظي البحث في هذه القضية بعناية في الدرس اللغوي العربي القديم فابن فارس المتوفى سنة395هـ بدأ كتابه بالحديث عن أصل نشأتها، وخصها ابن جني المتوفى392هـ في كتابه(الخصائص) بحديث حاول فيه أن يقدم تفسيرا لنشأتها وكذلك فعل السيوطي المتوفى سنة 911هـ في كتابه(المزهر في علوم اللغة وأنواعها). وسوف نعرض نصوصا موجزة تتضمن بعض ما قالوه في أصل نشأتها، وسنبدأ بأحمد بن فارس.

1- نظرية التوقيف:

يقول ابن فارس في كتابه(الصاحبي):

باب القول على لغة العرب

أتوقيف، أم اصطلاح؟

أقول: إن لغة العرب توقيف.

ودليل ذلك قوله جل ثناؤه:" وعلم آدم الأسماء كلها" فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس،من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها.

وروى خصيف عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء.

وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة.

وقال آخرون: علمه أسماء ذريته أجمعين.

والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس.

فإن قال قائل: لو كان ذلك كما تذهب إليه لقال:" ثم عرضهن أو عرضها".

فلما قال:" عرضهم" علم أن ذلك لأعيان بني آدم أو الملائكة، لأن موضوع الكناية في كلام العرب يقال لما يعقل:" عرضهم". ولما لا يعقل:" عرضها أو عرضن".

قيل له: إنما قال ذلك- والله أعلم- لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلب ما يعقل، وهي سنة من سنن العرب، أعني باب التغليب. وذلك كقوله جل ثناؤه" والله خلق كل دابة من ماء: منهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" فقال"منهم" تغليبا لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم.

فإن قال: أفتقولون في قولنا: سيف وحسام وعضب، إلى غير ذلك من أوصافه: إنه توقيف حتى لا يكون شيء منه مصطلحا عليه؟

قيل له: كذلك نقول.

والدليل على صحة ما نذهب إليه اجتماع العلماء على الاحتجاج للغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه. ثم احتجاجهم بأشعارهم. ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج واصطلحنا على لغة اليوم، ولا فرق.

مفهوم التغليب:التغليب يقصد به ترجيح أحد الأمرين على الآخر وذلك بأن نطلق لفظا واحدا فيعطي حكم غيره. أو هو بعبارة أخرى أن تجري المختلفين مجرى المتفقين وذلك بأن تعطيهما حكما واحدا.

- تحليل موجز للنص:

يذهب أحمد فارس في هذا النص إلى أن اللغة العربية توقيف بمعنى وحي أو إلهام وليست اصطلحا أو مواضعة أجماعية بدليل قوله تعالى في سورة البقرة آية(31): وعلم آدم الأسماء كلها واعتمد في هذا على تفسير عبد الله بن عباس رضي الله عنه(ت سنة 68هـ) بقوله:

" علمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشياء من الأمم وغيرها".

ولكن هناك من اعترض على هذا التفسير معتمدا في ذلك على قوله تعالى:" عرضهم" ولم يقل:" عرضها أو عرضهن" فلعله يقصد أسماء الملائكة أو أسماء كبار الناس من بني آدم، غير أن ابن فارس أكد ما ذهب إليه عبد الله بن عباس بأن المقصود هو جميع الأسماء،ولا يقصد(التبعيض)سواء أكان الأمر يتعلق بالملائكة أم بأسماء من بني آدم، وأن الضمير(هم) في (عرضهم) ليس إلا من قبيل(التغليب) المعروف في اللغة العربية، وهو خاصية من خصائصها التعبيرية واستدل على هذا التغليب بنص من القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النور- آية45:

" والله خلق كل دابة من ماء منهم من يمشي على بطنه،و منهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" فقال: " منهم" تغليبا لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم".

والخلاصة أن ابن فارس يرى أن اللغة توقيف أو إلهام وليست اصطلاحا، ورأيه فيها يمثل (نظرية) من نظريات البحث في نشأة اللغة وهي نظرية التوقيف.

2- نظرية الاصطلاح:

لابد من الإشارة قبل عرض هذه النظرية إلى أن ما قاله ابن فارس في أصل نشأة اللغة يمثل نظرية من نظرياتها، وما قاله ابن جني فيها في كتابه(الخصائص) الذي سبقت الإشارة إليه يمثل نظرية أخرى مخالفة لها، وهي نظرية الاصطلاح.
لقد حاول ابن جني أن يعرض هذه النظرية ويبين وجهة نظره فيها في كتابه السابق تحت عنوان: باب القول على أصل اللغة أإلهام أم اصطلاح.
وما قاله تحت هذا العنوان طويل لا يحتمله هذا المقام ولذلك نكتفي بجزء مما قاله وقد بدأه بقوله:
هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي (وتوقيف).
إلا أن أبا علي رحمه الله،قال لي يوما، وهي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه:" وعلم آدم الأسماء كلها" وهذا لا يتناول موضع الخلاف.وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي رحمه الله أيضا قال به في بعض كلامه.وهذا أيضا رأي أبي الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه. على أنه قد فسر هذا بأن قيل: إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات: العربية، الفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات؛ فكان آدم وولده يتكلمون بها،

ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها؛ لعبد عهدهم بها.ص41.42

تحليل النص:

في هذا النص يوضح ابن جني رأيه بطريقة لا تحتاج إلى تأويل؛ فهو يقول في قضية نشأة اللغة: إنها(تواضع واصطلاح)ويؤكد هذا بما ينفي القول بالوحي والتوقيف الذي سبق أن تعرفنا عليه عند ابن فارس، ببداية حديثة بقوله: هذا موضع محوج إلى فضل تأمل وكأنه يريد أن يقول لابن فارس ولكل من ذهب مذهبه بالقول إنها وحي وتوقيف؛ لأن الأمر فيها يحتاج إلى تفكير طويل وإلى تأمل غير قليل في طبيعتها باعتبار أن لها وظيفة اجتماعية إنسانية وهي التواصل والتفاهم وذلك طبقا لقوله الشائع عنها في كتابه(الخصائص)" إن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".
وهو في هذا يشير إلى أن الذين قالوا فيها بالوحي والتوقيف قد تسرعوا في الحكم، ولم يأخذوا طبيعتها الوظيفية ودور المجتمع الإنساني في إنشائها. وزاد من التأكيد على رأيه بالاستناد إلى دليل آخر وهو يتمثل في(الأكثرية) بقوله: (أن أكثر أهل النظر...)والأكثرية حجة شرعية لا يمكن تجاهلها أو نكران أهميتها.ومعنى هذا أن ابن جني يأخذ برأي الأغلبية في قضية نشأة اللغة، والرأي المخالف له لا يمثل إلا الأقلية. وهو في هذا يلتقي مع علماء اللغة المحدثين الذين يبعدون التفسير الغيبي لنشأتها، وينظرون إليها على أنها ظاهرة اجتماعية تنشأ بفعل المواضعة الاجتماعية. ومصداق هذا قوله عنها في التعريف السابق لها بأنها "أصوات" ثم قوله إنها تختلف باختلاف (القوم) ثم قوله:" يعبر بها كل قوم".
وبعدما أوضح هذا بجمل قصيرة تحمل الكثير من الدلالات ذهب إلى عرض رأي أستاذه أبي علي الفارسي الذي يقول فيها بالوحي والتوقيف استنادا إلى الآية الكريمة"وعلم آدم الأسماء كلها".
وهو في هذا يقف في طرف مناقض لرأي أستاذه ولكن ابن جني يستدرك على أستاذه بأنه قال له ذات يوم إن اللغة تواضع واصطلاح مما يجعله يتفق مع أستاذه أبي على الفارسي. وهنا يتضح لنا أن ابن جني يأخذ بالتواضع والاصطلاح في نشأة اللغة. ومن الطبيعي أن يذهب فيها هذا المذهب فهو معتزلي والمنعزلة أصحاب عقل وهم يقدمون الدليل العقلي في البحث على الدليل النصي الذي يأخذ به ابن فارس ويأخذ به أبو علي الفارسي. ويعتبر هذا تحولا مهما في التفكير اللغوي في القرن الرابع الهجري على يد ابن جني.

3- نظرية المحاكاة:

قال ابن جني في كتابه(الخصائص):
"وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل".

وقال الثعالبي في كتابه(فقه اللغة وسر العربية):
فصل فيما يليق بهذا الباب من الحكايات
عن ثعلب، عن سلمة، عن الفراء.

قال: سمعت العرب تقول:
غاق غاق،لصوت الغراب.
وطاق طاق، لصوت الضرب.

والطقطقة حكاية ذلك. عن الليث عن الخليل.
تقول العرب في حكاية صوت حوافر الخيل على الأرض:
حَبَطقْطَق. وأنشد:
جرت الخيل فقال تحبطقطق حَبَطَقْطَق.

قال ابن الإعرابي: ومثلها: الدقدقة.

قال: وشَيْب شَيْب: حكاية جرع الإبل الماء، وقد نطقت به أشعار العرب.
قال: وغِقْ وغِقْ، حكاية غليان القدر.
وفي الحديث: إن الشمس لتقرب يوم القيامة من الناس، حتى إن بطونهم لتقول: غِقْغِقْ.
قال: والدَّبْدَبَة، حكاية صوت الدبادب كأنه: دَبْ دَبْ.ص244

تحليل النص:

هذا النص يختص بالحديث عن النظرية الثالثة في أصل نشأة اللغة، وهي (نظرية المحاكاة). والمقصود بهذا أن اللغة في أصل نشأتها جاءت عن طريق محاكاة المسموعات أو لما سمع في الطبيعة، وليست إلهاما أو اصطلاحا كما رأينا في النظريتين السابقتين. ومن المعلوم أن هذه النظرية يقول بها كثيرون من علماء اللغة منهم: ابن جني في كتابه(الخصائص) والثعالبي في كتابه(فقه اللغة وسر العربية). وهذا النص يتضمن رأييهما معا. ففي الأول منه عرض ابن جني رأيه فيها بقوله:
"وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات"
وقد ضرب أمثلة على هذا الرأي بذكر طائفة من الأصوات التي جاءت محاكاة للطبيعة سواء ما تعلق منها بأصوات الحيوانات التي تمثل الجانب الحي فيها أم بالأصوات الميتة. ففي الجانب الأول المتعلق بالطبيعة الحية فقد ذكر منها ما يلي:

- الشحيج وهو صوت الحمار.
- النعيق وهو صوت الغراب.
- الصهيل وهو صوت الفرس.

أما الجانب الميت أو الجامد فقد ذكر منها:

- الدوى وهو للريح.
- الحنين وهو للرعد.
- الخرير وهو للماء.

وختم حديثه بقوله: وهذا عندي وجه صالح، ومذهب مستقبل" ويعني بهذا أن نظرية المحاكة تلقي تأييدا عنده، وهو يأخذ بها، وقد سبق أن رأيناه يأخذ بنظرية الاصطلاح وينكر الوحي الذي تمثله النظرية الأولى فيها.

إن أخذ ابن جني بهذه النظرية لا يعني أنه يتناقض مع قوله بالاصطلاح التي وصفها بأنها تمثل الأكثرية على حين قال في نظرية المحاكاة إنها تمثل اتجاها عند بعض علماء اللغة بدليل قوله:(ذهب بعضهم) وهذا البعض لا يمثل إلا جزءا من قوله:(إن أكثر أهل النظر...).

وفي هذا ما يشير إلى أن ابن جني لا يرى تناقضا فيما بين النظرتين، بل إنهما يتكاملان معا باعتبارهما من قبيل المواضعة الاجتماعية.
أما الثعالبي فقد اكتفى بعرض طائفة من الأصوات التي تمت فيها المحاكاة للمسموعات في الطبيعة والحياة، وكانت عنده متنوعة أكثر من الأمثلة التي عرضها ابن جني حيث اشتمل بعضها على أصوات الحيوانات كما جاء فيما يلي:

- غاق وهو صوت الغراب.
- الطقطقة وهو صوت حوافر الخيل.
- حبطقطق وهو صوت لجري الفرس.

كما اشتملت الأمثلة الثانية على محاكاة الطبيعة العامة الجامدة مثل:

- الطاق وهو صوت الضرب.
- الدقدقة وهي صوت الدق.
- غق وهو صوت غليان القدر.

إن هذه النظرية لا يقول بها ابن جني والثعالبي فقط، وإنما يقول بها كذلك بعض علماء اللغة في العصر الحديث ويضربون لها أمثلة بصوت الكلب(هَوْ هَوْ) وصوت الهر(نَوْ نَوْ) إلى غير ذلك ولكنها نظرية ضعيفة لا تلقى رواجا كبيرا لدي دارسي اللغة.

- الألفاظ ودلالاتها:

تمهيد:

من المعروف أن اللغة نظام من الرموز الصوتية أو كما عرفها ابن جني هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ولكن غير المعروف هو علاقة هذه الرموز الصوتية بالمدلول أو المعنى، فهل هناك علاقة بين اللفظ ، ومدلوله الذي في أذهاننا؟ وهل هناك صلة بين الصوت(طالب) وما يدل عليه؟ لتوضيح هذه العلاقة بين الصوت ومدلوله نستعرض فيما يلي بعض النصوص تعالج هذه العلاقة:

أ- أشكال العلاقة بين الألفاظ ودلالاتها:

1- العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها:

قال جلال الدين السيوطي(ت911هـ):
" وقد عقد ابن جني في الخصائص بابا لمناسبة الألفاظ للمعاني وقال:
أعلم أن هذا موضح شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته". قال الخليل: كأنهم توهموا في الجندب استطالة ومدا فقالوا: (صر) وفي صوت البازي تقطيعا: فقالوا: (صرصر).

ويواصل شرح هذا الكلام بقوله:
" ويعني هذا أنه آلتفت إلى وجود صلة بين صوت الجندب والفعل الذي يدل عليه(صر). وبسبب تشابه صوت البازي وصوت الجندب مع وجود اختلاف في الكيفية، جاء الذي يصف صوت البازي مضعفا:(صرصر) ".

2- العلاقة بين اللفظ ومدلوله في تكرار الصوت:

وفي هذا العلاقة يقول ابن جني(ت392هـ):
" وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط: من ذلك: الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة، والقلقلة والصلصلة (صوت الطين اليابس) و(القعقعة) (ترجيع الصوت). وقال مرة أخرى موضحا: من ذلك أنهم جعلوا تكرير العين يقصد عين(فعل) في المثال دليلا على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر، وقطَّع، وفتَّح وغلَّق. فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام وذلك لأنها واسطة لهما.

3- العلاقة بين اللفظ ومدلوله في الصيغة:

تتميز اللغة العربية بخصائص عديدة. من هذه الخصائص أنها لغة اشتقاقية. ومعنى هذا أن لكل صيغة اشتقاقية فيها دلالة معينة. وقد أولى علماء اللغة عنايتهم بهذه العلاقة في تراثنا اللغوي منذ أن بدأ البحث اللغوي في القرن الثاني الهجري كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها. ومن الأمثلة التي تتردد في كتب هؤلاء العلماء في العلاقة بين اللفظ وصيغته قولهم: (الفعلان) إنها تأتي، لتدل على الاضطراب والحركة نحو النقزان (الوثوب والصعود) والغليان والغثيان وما إلى ذلك، ولهذا قال سيبويه (ت180هـ):
" قابلوا بتوالي حركات الأمثال(يقصد الأبنية) توالي حركات الأفعال ".
إن هذه العلاقة ثابتة ومؤكدة ولا يخلو منها كتاب من كتب اللغة التي تدرس خصائص اللغة العربية، بل هناك كتب خاصة للبحث في هذه العلاقة، ومازال البحث فيها متواصلا لكونه من المباحث الهامة في تطور اللغة العربية من خلال خصائصها التعبيرية المتجددة.ومن البحوث الجديدة في هذا الجانب ذلك البحث القيم الذي حاول فيه صاحبه أن يثبت العلاقة بين الصيغ الصرفية ودلالاتها في القرآن الكريم وربطهما بالإعجاز القرآني وذلك في كتابه الذي يحمل عنوان: "الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم" للدكتور حسن هنداوي.

ب-أشكال العلاقة بين اللفظ ومدلوله:

لا تقتصر العلاقة بين الألفاظ ودلالاتها على ما قدمناه سابقا، وإنما تمتد إلى ظواهر كثيرة لها ومن ظواهرها ما يلي :

1- المشترك اللفظي:

يعرف المشترك اللفظي بأنه اللفظ الدال على معنيين مختلفين فأكثر. ومن الأمثلة على ذلك لفظ العين الذي تناولته كتب القدماء. فهذا اللفظ يدل على معان عديدة كما جاء عند الأصمعي (ت216هـ) في كتابه الأجناس، منها:

1 - العين: النقد من الدراهم والدنانير، ليس بعَرض.
2- العين: مطر أيام لا يقلع.
3- العين: عين الإنسان التي ينظر بها.
4- العين: عين البئر، وهو مخرج مائها.
5- العين:عين النفس،أن يعين الرجل الرجلَ ينظر إليه فيصيبه بعين إلى غير ذلك.

أما الأسباب الداعية إليه فهي كثيرة، وقد حاول السيوطي (ت911هـ) أن يحددها بقوله:
" اختلف الناس فيه، فالأكثرون على أنه ممكن الوقوع لجواز أن يقع إما من واضعين، بأن يضع أحدهما اللفظ لمعنى، ثم يضعه الآخر لمعنى، ويشتهر ذلك بين الطائفتين في إفادته المعنيين، وإما من واضع واحد لغرض الإبهام على السامع حيث يكون التصريح سببا للمفسدة كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد سأله رجل عن النبي(صلعم) وقت ذهابها إلى الغار: من هذا؟ قال: هذا رجل يهديني السبيل".

ويفهم من هذا النص أن هناك سببين لهذه الظاهرة:

أ- الاختلاف بين الناس في وضع اللفظ للمعنى، سواء أكان ذلك من قبل أفراد أم جماعات كما هو الحال بين لغات القبائل العربية المتباعدة عن بعضها.
ب- التمويه لدفع الضرر، مثل استعمال كلمة السبيل بمعنى الطريق أو الدين والإيمان بالرسالة التي جاء بها الرسول (صلعم).

وهناك أسباب عديدة أخرى يضيق المقام لعرضها هنا.

2- الترادف:

عرفه القدماء من اللغويين، بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد أو هو الدلالة بأكثر من لفظ على معنى واحد كالسيف والصارم فإنهما دلا على شيء واحد". هذا هو مفهوم الترادف، وهو ظاهرة شائعة في اللغة العربية. وقد عالجه القدماء في كثير من كتبهم. ولكنهم انقسموا حوله إلى فريقين:

- الفريق الأول يعترف بهذه الظاهرة، ويراها ماثلة في اللغة، ولا سبيل إلى إنكارها، والأمثلة على ذلك عديدة منها السيف الذي له العديد من الأسماء، مثل الصارم والحسام والمهند والقاطع إلى غير ذلك. ومن الكتب الهامة التي بحثت هذه الظاهرة كتاب حديث بعنوان: الترادف في اللغة لصاحبه: حاكم مالك لعيبي.

- الفريق الثاني يعترض على هذه الظاهرة ويقدم أدلته من واقع الأسماء التي قدمت للسيف على أنها صفات له أو اتحادها في الدلالة على الذات التي هي السيف.

وقد عرض السيوطي في كتابه المزهر في علوم اللغة وأنواعها وجهات النظر المختلفة من هذه الظاهرة بقوله:

" قال العلامة بن جماعة في شرح جمع الجوامع: حكي الشيخ القاضي أبو بكر بن العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال كنت: بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسما، فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا اسما واحدا، وهو السيف. قال ابن خالويه: أين المهند، والصارم وكذا وكذا؟ قال أبو علي: هذه صفات.وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة ".

لقد عرف العرب هذه الظاهرة، وتعاملوا معها على أنها واقع سواء أكان ذلك على سبيل أنها صفات لشيء واحد أم على أنها أسماء وليست صفات، وكانت مثار خلاف فيما بينهم كما أشار السيوطي، وإلى الآن ما زال النقاش فيها متواصلا بين الدارسين للغة شأنها في ذلك شأن أي قضية لغوية مثيرة للخلاف باعتبارها شأنا من شؤون البحث في قضايا اللغة، وظواهرها التعبيرية.

على أنه مهما كان هذا الخلاف بين المؤيدين والمعارضين لها وفيما إذا كانت لها سلبيات أو ايجابيات، فإنها تبقى ظاهرة لغوية موجودة في اللغة العربية ولا نريد الخوض في تفاصيلها هنا لضيق المقام لننتقل إلى ظاهرة أخرى وهي التضاد .

3- التضاد:

يقصد بالتضاد في الاصطلاح اللغوي القديم، استخدام اللفظ بمعنيين متضادين أو التعبير بلفظ واحد عن معنيين متضادين مثال على ذلك كلمة (الجوْن) فهي تطلق على الأسود والأبيض، وكذلك لفظ(الجلل) فهو يطلق على العظيم،والحقير وفي مثل هذا أيضا لفظ(الساحر) فهو يطلق على ما هو مذموم،وسيء،وللحقير،ويستدل على هذا بقوله تعالى في سورة الزخرف (49):

" وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك".

" أراد يا أيها العالم الفاضل؛ لأنهم لا يخاطبونه بالذم والعيب في حالة حاجتهم إلى دعائه لهم، واستفادة إياهم من العذاب والهلكة ".

هذه نماذج مما ورد عند القدماء في معالجتهم هذه القضية أو الظاهرة وهي مثل غيرها من الظواهر التي كان لها أنصار كما كان لها معارضون وقد أشار بعضهم إلى هذا الخلاف عند الدارسين بقوله:

"وقد كانت الأضداد ومازالت بهذا المعنى مرادا للقول عند الباحثين، وموضعا للجدل عند العلماء والدارسين، فمنهم من قال بإمكان وقوعها وعد وضعها في مألوف القوانين اللغوية والمواضعات الاصطلاحية، وذلك لأن المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية، وذكروا من عللها وأسبابها وشواهدها الشيء الكثير، من هؤلاء الأصمعي(ت 216هـ)وأبوعبيدة(ت213هـ)السجستاني(ت255هـ)،وابنالسكيت(ت244هـ)وقطرب(ت206هـ)وابن الأنباري(ت328هـ) كما يبدو ذلك واضحا من مصنفاتهم وآرائهم المنتثرة في كتب اللغة والأدب.

" ومنهم من أنكر هذه الأضداد إنكارا عنيفا وأبطلها إبطالا تاما، وتأول ما ورد منها في اللغة ونصوص العربية، وأشهر من أعلن هذا الرأي ابن درستويه (ت347هـ) فإنه ألف كتابا أسماه (إبطال الأضداد) وذهب إلى جحد الأضداد جميعها ".

والجدل في هذه القضية لم يقتصر على القدماء وإنما امتد إلى المعاصرين أو إلى دارسي اللغة اليوم ولا يخلو كتاب من كتب اللغة ذات الاهتمام بالحديث عن خصائص اللغة العربية، من التعرض لها ومحاولة مناقشتها بالإثبات أو النفي لها. ومن المؤيدين لها (محمد نور الدين المنجد) حيث خصص لهذه القضية كتابا بعنوان: الأضداد في القرآن الكريم.

ومهما كان هذا الخلاف في القديم والحديث وما أدى إليه من نتائج، فإن الاهتمام بها يدل على أنها مثل سائر القضايا اللغوية التي عرضنا لها فهي تجد من يؤيدها، كما تجد من يعارضها. ولا شك في أن هذا النقاش يثري البحث اللغوي، ويوضح أمورا كثيرة، وإن كان لا ينفي وجودها في عرف الاستخدام اللغوي لأنه هو المعول عليه في هذه القضية، ونقصد بهذا أن الدراسات السياقية للنصوص هي التي تكون المنطلق لهذه القضية بالنفي أو الإثبات.

الاشتقاق

- مفهومه وأنواعه:

للغة العربية خصائص كثيرة تتميز بها. ومن هذه الخصائص ما يعرف فيها بالاشتقاق:

والسؤال هنا ما هو هذا الاشتقاق؟

ثم ما هي أنواعه؟ وما هي الكيفية التي يتم بها؟.

مفهوم الاشتقاق:هو أن تنزع كلمة من كلمة أخرى،على أن يكون ثم تناسب بينهما في اللفظ والمعنى.فمن مصدر السمع مثلا يشتق الفعل الماضي(سمع)واسم الفاعل(سامع)واسم المفعول(مسموع) إلى آخره. وتكون جميع هذه المشتقات، متفقة في حروفها الأصلية، وفي ترتيب تلك الحروف، وفي المعني الأصلي للمصدر وهو السمع. واختلافها إنما هو في الصيغة فقط أي في صيغة الفعل الماضي، وصيغة اسم الفاعل،وصيغة اسم المفعول إلى آخر ما هنالك من صيغ كالتي تدل على الفعل المضارع وعلى اسم الزمان والمكان والمبالغة وأمثال ذلك.

فهذا النوع من الاشتقاق يسمى الاشتقاق الصغير.

أما إذا كان بين الكلمة الأصلية والكلمة المشتقة في اللفظ والمعنى دون ترتيب في الأحرف، فهذا النوع من الاشتقاق يسمى الاشتقاق الكبير والاشتقاق بالقلب ومعناه تقديم بعض أحرف الكلمة الواحدة على بعض مثل: جذب وجَبَذَ، ففيهما نرى الأحرف في كل من الفعل الأصلي والفعل المشتق واحدة، ونرى المعنى فيهما واحدا أو مقاربا، ولكن ترتيب الأحرف قد اختلف.

وعلى هذا نقول: إن جبذ مشتق بالقلب من جذب(لأن جذب أكثر تداولا وشيوعا من جبذ) وهكذا نقول في عدد كبير من الألفاظ التي اشتقت بالقلب، أي بتغيير مواقع الحروف.

وثمة نوع ثالث من الاشتقاق يسمى الاشتقاق الأكبر أو الإبدال وهو انتزاع لفظ من لفظ مع تناسب بينهما في المعنى والمخرج، واختلاف في بعض الأحرف، نحو عنوان الرسالة و علوانها. ففي الثانية أبدلت اللام من نون الأولى. ويقولون إن النون واللام متناسبتان في المخرج، فكلتاهما من أحرف الذلاقة أي أحرف طرف اللسان والشفة.

والخلاصة إن الاشتقاق خاصية هامة من خصائص اللغة العربية ولهذه الخاصية علاقة بنمو اللغة، وتكاثرها،وتعدد معانيها وهي إمكانية في يد الكاتب أو المبدع،ليعبر عن معانية، وأفكاره بسهولة.

ويعود الفضل في التنبه إليه إلى ابن جني(ت392هـ)،وقد تحدث عنه في كتابه الخصائص، ومنه نقتطف لكم هذا النص الموجز:

هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا، غير أن أبا علي - رحمه الله- كان يستعين به، ويخلد إليه،مع إعواز الاشتقاق الأصغر. لكنه مع هذا لم يسمه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة،ويستر حاليه ويتعلل به، وإنما هذا التقليب لنا نحن. وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير. فالصغير ما في الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلا من الأصول فَتَتَقَرَّاه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه. وذلك كتركيب(س ل م) فإنك تأخذ معنى السلامة في تصرفه؛نحو سلم،ويسلم،وسلمان،وسلمى والسلامة والسليم:اللديغ،أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة.

وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف منها من كل واحد منها عليه،وإن تباعد شئ

من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد" جـ2 ص135.136.

المعرَّبُ

1- مفهومه:

يقصد بالمعرب ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها. هذا هو التعريف الذي شاع بين القدماء، وقد ذكره السيوطي في كتابه الشهير: (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) أما في عصرنا الحالي فيعرف بالاقتراض أو الاقتباس أو الاستعارة.

وحسب التعريف الذي ذكره السيوطي فإن المعرب يعد ظاهرة لغوية مستمدة في الأصل من حضارات الشعوب الأجنبية اقتضته الضرورة أو الحاجة إلى التجديد والتنويع والتلوين فدخل اللغة العربية وصار من مفرداتها ومن حصيلتها المعجمية، ولكنه لا يسمى معربا إلا بعد أن تدخل عليه تعديلات أو تغييرات ليتناسب مع أنظمتها الصوتية والصرفية ليسهل الاشتقاق منه ومن الأمثلة التي يذكرها القدماء لهذا المعرب:

1 - طه سريانية.
2- الطور سريانية.
3- الربانيون سريانية.
4- الصراط رومية.
5- القسطاس رومية.
6- الفردوس رومية.
7- المشكاة حبشية.

وغيرها ومن الملاحظ أن هذه الكلمات قد جاءت في القرآن الكريم. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل يصح أن يقال إن في القرآن الكريم كلمات أعجمية مع القول في الآن نفسه إنه قرآن عربي مبين فكيف يمكن التوفيق بين الأمرين أو الرأيين المتناقضين؟.

2- ما هي مواقف علماء اللغة من المعرب؟:

في الإجابة عن هذا السؤال نجد علماء اللغة ينقسمون إلى فريقين بين موافق على وجود كلمات أجنبية في القرآن الكريم، ومعارض لها، ومن الموافقين على وجود هذه الظاهرة في القرآن قول أحدهم: وزعم أهل العربية أن القرآن الكريم ليس فيه من كلام العجم شيء لقوله تعالى:" إن جعلناه قرآنا عربيا" الزخرف (3) .وقوله كذلك "بلسان عربي مبين" الشعراء(195).
وحين اشتد الخلاف بين الفريقين وجد من حاول أن يقدم تفسيرا توفيقيا لهذا الخلاف ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى(ت213هـ) في القرن الثاني الهجري بقوله:

" والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا؛ ذلك أن هذه الحروف أصولها عجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق؛ ومن قال أعجمية فهو صادق".

وإلى جانب هذا الرأي التوفيقي بين الرأيين، نجد رأيا آخر لا يخالف رأي أبي عبيدة ولكنه يحاول أن يبين بعض الفروق بين كلمات أخضعها العرب لكلامهم، وينطبق عليها المفهوم السابق للمعرب. أما ما بقي من الكلمات التي لم تدخل عليها تلك التعديلات فقد كانت متوافقة مع كلام العرب، وهي في هذه الحالة ليست في حاجة إلى إدخال التعديلات عليها،و صاحب هذا التفريق بين الكلمات هو أبو حيان بقوله:

- الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام:
- قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصل، والزائد والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع: نحو: دِرْهم، وبَهْرَج.
- وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله نحو: آجُر، وسِفْسِير.
- وقسم تركوه غير مغير، فلم يلحقوه بأبنية كلامهم ولم يعد منها، وما ألحقوه بها عُدَّ منها مثال الأول: خُراسان ولا يُثبتُ به فُعَالَان.

3 - أشهر من كتب في المعرب:

وأشهر من القدماء من كتب في المعرب هو: أبو منصور الجواليقي(ت540 هـ) حيث خصه بكتاب اسماه: (المعرب من الكلام الأعجمي) وقد نوه به السيوطي بقوله: " وقد ألف في هذا النوع الإمام أبو منصور الجواليقي كتابه: (المعرب في مجلد)، وهو حسن ومفيد".